ينبوع بيروت الصاخب

حينما وطأت قدماي أرض العاصمة اللبنانية بيروت قبل قرابة ست سنوات، كانت ترن في أذني أغنية الشحرورة صباح «غلطان بالنمرة» التي كنت قد سمعتها في مذياع قديم قبل سنوات. هكذا تظل الأعمال الأدبية والفنية خالدة في الذاكرة عندما ترتبط بالمكان والضمير الإنساني. وهكذا كان صوت صباح يأتي ذلك اليوم عبر السنين والمسافات البعيدة الغائرة:

«غلطان بالنمرة
أنا مش بيضا ولا سمرا
أحنطية وعندي ولاد
وعندي زوج بيسوى بلاد
وبيتي ف شارع الحمرا».

حسن المطروشي

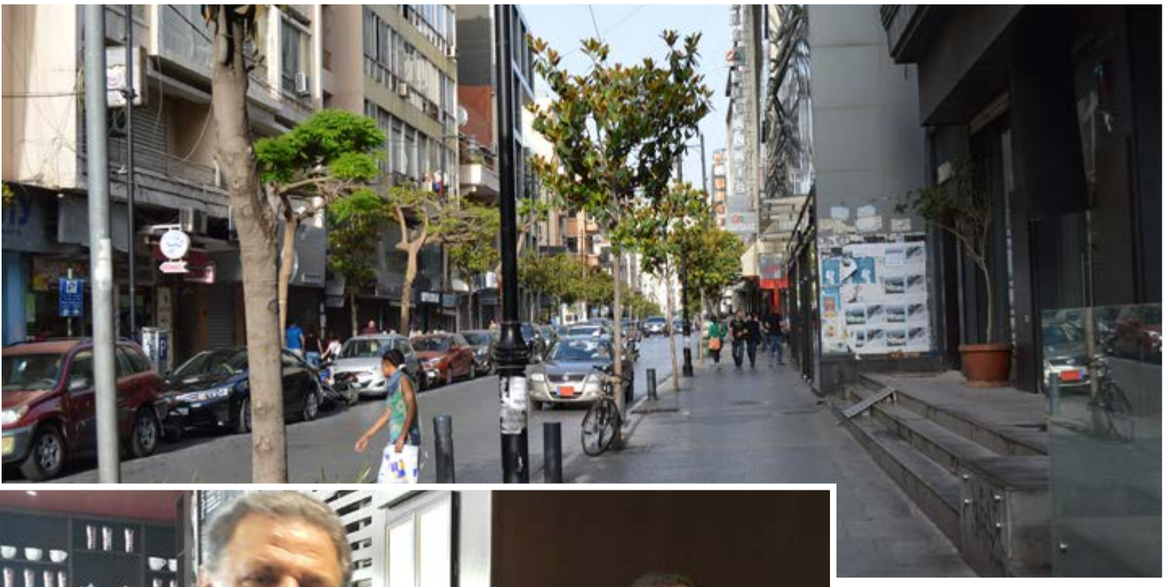

برفقة الشاعر شوقي بزيع

كان ثمة نزوع يدفعني بتوق عميق لزيارة هذا الشارع الذي يوازي الأساطير في المخيلة، لكثرة ما سمعت عنه، وما قرأت عنه أنه يمثل البيت الوثير للكثير من الكتاب والفنانين والشعراء وطيور القصيدة المهاجرة أمثال محمود درويش ومحمد الماغوط ومحمد الفيتوري وأنسي الحاج وعمر أبو ريشة وبلند الحيدري ونزار قباني وغيرهم الكثير.

كنت يومها أحضر فعاليات معرض بيروت الدولي للكتاب، إذ التقيت في مقهى المعرض بعدد من الأصدقاء وفي مقدمتهم الشاعر الكبير شوقي بزيع. تم الاتفاق على قضاء السهرة بعد مغادرة المعرض في أحد مقاهي شارع الحمرا، حيث يقيم شوقي بزيع سنوات. ورغم أنني تجولت في ليلة سابقة في الشارع إلا أني لم أتمكن من اكتشاف الكثير من مفاتن الشارع وأسراره بمفردي. لا بد من أحد يشاركك لذة المغامرة، لاسيما من العارفين بالمكان وتفاصيله وشعابه. أما بالنسبة لشوقي بزيع فإن الشارع يمثل له ذاكرة غزيرة من الشعر والأصدقاء والندامى والذكريات التي خطها على رصيفه والحكايات التي نقشها على جدران مقاهيه والقصائد التي دسها في جيوب جميلاته. هنا يستذكر شوقي جلساته الطويلة في خلوته الخاصة التي كان يقضيها بمقهى «كافيه دو باري»، يكتب قصائده التي كانت ترحل من هنا إلى كافة أقاصي العالم، محملة بعبق أمطار بيروت ورائح أشجار الصبار والتوت في هذا الشارع الصاخب.

قضينا أدنى من ثلثي الليل في مقهى «تاء مربوطة» الذي يقع في آخر الشارع، في زاوية من فندق «بافيون». هذا المقهى بحد ذاته قصة طويلة، تبدأ من اسمه اللافت الذي يصر أصحابه على أن يحمل هوية عربية في ظل الهجمة الشرسة التي لحقت بالشارع العريق وغيرت معالمه من الطابع الشرقي إلى الأجواء الغربية، حيث تنتشر الآن المقاهي العابرة للقارات مثل «كوستا» و «ستار كافيه» و«الكاريبيان» وغيرها الكثير. يقدم المقهى الوجبات اللبنانية الأصيلة في جو حميم يأخذ الطابع اللبناني التقليدي، بمقاعده مصنوعة من قش الأشجار وفسحته الداخلية التي تتيح مناخا خصبا للتأمل. يحتوي المقهى على مكتبة صغيرة لمحبي القراءة، ويسهم بعض الزوار بإثراء المكتبة بالكتب من خلال إهداءاتهم التي يقدمونها.

كنا خمسة نفر يجتمعون على حب الثقافة والفن وولع المعرفة، الشاعر الكبير شوقي بزيع وحرمه الشاعرة رنيم ضاهر، والشاعر ربيع شلهوب وخطيبته (التي تزوجها لاحقا) الكاتبة عائشة عجينة، وأنا كاتب هذه السطور. هكذا يجرب الزائر مذاق ليل الحمراء الشاسع.

في كل مرة أزور فيها بيروت لابد لي من تجوال مع شوقي بزيع وقضاء وقت، ولو يسير، في أحد

مقاهي هذا الشارع الفاتن. في لقائنا الأخير، بتاريخ ١٣ مايو ٢٠١٧م، كان اللقاء في مقهى «ستار كافيه»، حيث التقينا مصادفة بالشاعر اللبناني حسن عبدالله. كان قد اتخذ طاولة بجوار مدخل المقهى، يحدق في أجواء المكان ويقرأ الظلال العابرة. ورغم انقطاعنا فترة إلا أن حسن عبدالله لم ينس النكتة التي ضحكنا عليها كثيرا قبل سنوات (المطروشي.. رد لي قروشي). قالها وضحك بهدوئه المعتاد. هو رجل تضحك روحه وعيناه قبل شفتيه!

هذا الشارع الذي يبلغ طوله الآن حوالي ١٣٠٠٠ متر، كان يقطنه صائدو الأسماك والفلاحون، ويعود اسمه إلى عائلة بني الحمراء البقاعيين منذ القرن الخامس عشر الميلادي. كان يغرق في المطر والوحل شتاء، ويجف تحت شمس الصيف. وقد مر منذ ذلك الحين بتحولات درامية، كان فيها شاهدا على العمران والأموال التي تدفقت عليه من أثرياء النفط عبر الاستثمارات الخليجية في خمسينيات القرن المنصرم، ليتحول إلى «شانزليزيه الشرق» دون منافس، ليستقطب السياح والأجانب من كل بقعة من بقاع العالم.

شهد هذا الشارع الحروب والصراعات الأهلية اللبنانية، وكان مسرحا للاقتتال والتناحر وفرق الجنود والمدرعات والقصف الذي أودى بلبنان في حرب طاحنة منذ عام ١٩٧٥م إلى عام ١٩٩٩م، حتى وضعت الحرب أوزارها، وهدأت فوهات البنادق وعاد الشارع لينهض صاخبا كطائر العنقاء من جديد، ولتتدفق منه الحياة إلى نواحي بيروت الجميلة.

شارع الحمراء أشبه بالقلب النابض الذي لا يتوقف. يقال إنه الشارع الذي لا ينام في بيروت. ثمة حركة دائبة طوال الوقت، وثمة صخب مستمر في كل لحظة. المارة الذين لا يتوقفون، والعربات التي تعبر الطريق باستمرار، فيما ترتفع حدة الازدحام مساء، حينما تدخل بيروت تحت عباءة الليل. أصوات الموسيقى المنبعثة من المحلات والسيارات وآلات العازفين المتجولين الذين يوجودن أحيانا على الرصيف، يملأون المكان بالموسيقى ويكسبون قوت يومهم من ما يقدمه لهم المارة من دراهم معدودة.

في شارع الحمراء تتجاور المحلات الكبيرة التي تبيع أشهر الماركات العالمية وتعرض آخر صيحات الموضة القادمة من أضخم دور الأزياء وابتكارات أشهر المصممين العالميين، إلى جانب المحلات الصغيرة التي

تعرض السلع البسيطة التي تكون في متناول الإنسان العادي.

كما تنتشر في شارع الحمراء المطاعم المختلفة التي تقدم أشهى الأطباق ومختلف ألوان المأكولات العربية والغربية والعالمية. ولا يخلو الشارع من المقاهي الصغيرة التي تقدم المعجنات والساندويتشات والوجبات الخفيفة والسريعة للعابرين خفافا كالظلال.

وهنا أيضا أكشاك بيع المجلات والصحف والبضائع البسيطة التي يتكسب من ورائها صغار التجار وبسطاء الباعة الذين يتشبثون بهذه المهن، رغم أنها لا تدر الكثير، لكنها تظل خيارا ضروريا ومقبولا للحياة في عالم مادي متوحش.

الربيع العربي المزعوم وآثاره الكارثية أيضا تتجلى في بعض مشاهد شارع الحمراء التي أخذت تبرز حديثا، وهي وجود المتسولين من النساء والأطفال وكبار السن وأصحاب العاهات، الذين نزحوا من ديارهم إلى لبنان، لتتلقاهم الأرصفة والشوارع وربما العصابات لممارسة التسول بمختلف الأساليب والحيل، حيث يتمسك المتسول بضحيته حتى يحصل منه على المال، وهو الأسلوب البشع الشائع والمتبع في أغلب المدن العربية التي تنتشر فيها ظاهرة التسول، في ظل تدري الأوضاع المعيشية والأمنية والسياسية في بلاد العرب.

ويظل شارع الحمراء في ذاكرة زائره بهدير أصواته وعبق روائحه وحضوره العميق الذي يستعصي على النسيان. إنه المكان الذي يشكل حنينا دائما للعودة إلى هذا الصخب الآسر، وهذه الواجهات المهيبة، وتلك الوجوه التي تعبر على عجل وتتوزع في تفاصيل المكان وتظل خطاها ترن في أقاصي القلب.

قصر مريم عزة يحكي قصصاً من يوميات سكيكدة الجزائرية

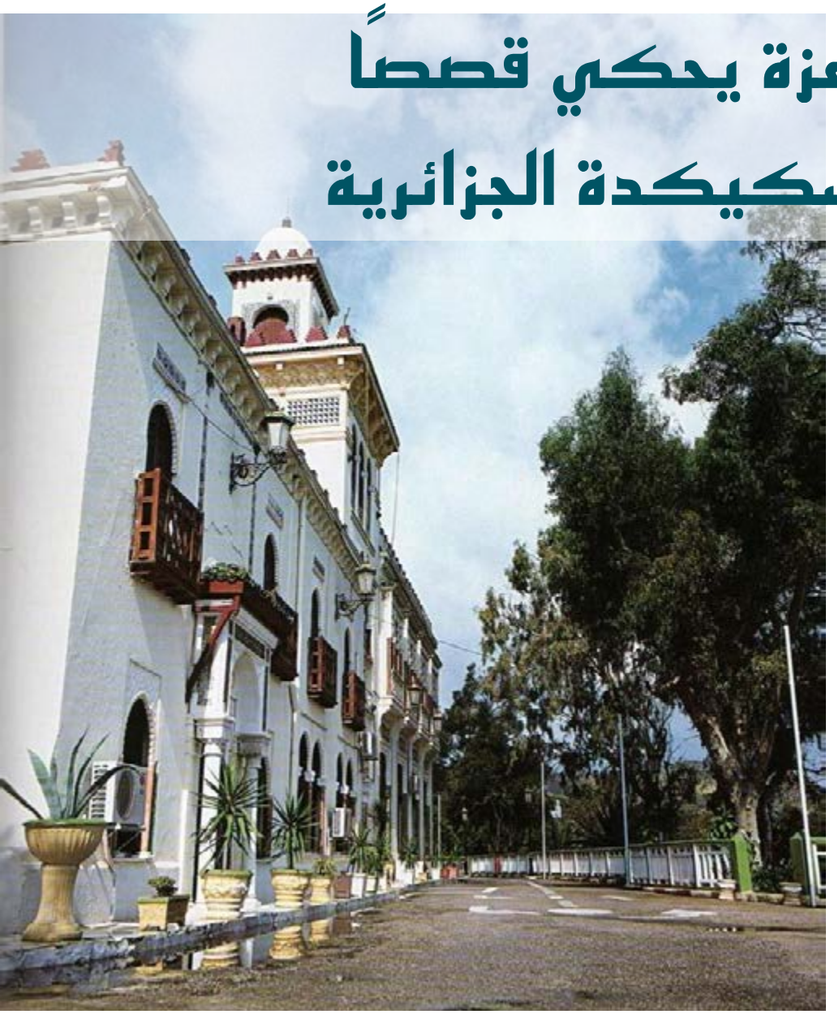

لا تكتفي مدينة سكيكدة الواقعة شرق الجزائر، بإدهاش زائرها بتلك الإغفاءة التي ترسمها جفونها على شاطئ البحر الأبيض المتوسط منذ أن خلق الله البسيطة، لكنّها تضيف إلى ذلك مجموعة من المعالم المعمارية التاريخية التي بقيت شامخة لأكثر من قرن من الزمن تحكي تفاصيل الحياة التي نسج يومياتها أناسٌ مرُّوا عبر هذه الأمكنة ورحلوا، ولكنّ ذكرياتهم ما رحلت.

خلال فصل الصيف، تشهد مدينة «روسيكادا»، وهو الاسم التاريخي لسكيكدة، حركة سياحية كبيرة من داخل الجزائر وخارجها، نظرًا لشواطئها الساحرة وغاباتها وجبالها التي تختصر روعة أجمل ما اشتملت عليه الطبيعة المتوسطية.

ولا يكتفي ضيوف سكيكدة بزرقة البحر وخضرة الغابات، فهم لا يتردّدون في زيارة بعض معالم هذه المدينة الجميلة على غرار قصر مريم عزة، والنُّزل البلدي، ومحطة القطار، ودار البريد المركزية والبنك المركزي.

ويُعدّ قصر مريم عزة أيقونة تلك المعالم، لخصوصيته الجمالية والمعمارية، حيث ينظر إليه سكان ولاية سكيكدة بوصفه «مفخرة المدينة»، وهم يُسمُّونه تارة «قصر مريم عزة»، وتارة أخرى «قصر بن قانة»، ولاسمه قصة ترويها بعض المصادر التاريخية التي تناولت ظروف بنائه والمراحل التي مرّ بها حتى اليوم.

إذ يعود تاريخ إنجاز القصر إلى سنة ١٩١٣ بإشراف المهندس المعماري الفرنسي شارل مونتالو، وقد أنشئ القصر في البداية ليكون مقرًا لإقامة رئيس بلدية سكيكدة آنذاك بول كيتولي. ومن أهمّ مميّزاته، وجوده بمنطقة غابيّة تُطلُّ على شاطئ سطورة بأعالي مدينة سكيكدة. واستطاع «مونتالو» أن يجمع في إنجازه للقصر بين الزخرفة العربية والهندسة المعمارية الأندلسية، ما أسفر عن تحفة في غاية الروعة والجمال.

ويُلاحظ أيضًا أنّ الخزف الذي استُخدم في إنجاز قصر مريم عزة من نوعية نادرة، ويُرجَّح أنّه صُنع في أحد أفران مصنع حرّفي عائلي متمرّس في نابل بتونس، وهو الخزف نفسه الذي استُخدم لتزيين محطة القطارات وفندق المدينة بسكيكدة، وكذا فندق الجزائر بالعاصمة («سان جورج» سابقًا)، وحتى في بعض المباني الحكومية المعروفة بالساحل الغربي للولايات المتحدة الأمريكية كمحكمة سان بربارا.

وفي محيط القصر، لن يفوت عين الزائر ملاحظة تلك اللّمسة الهندسية التي كان يُعرف بها المرابطون.

وتُشير الروايات المتواترة عن قصر مريم عزة إلى أنّ بول كيتولي أمر ببنائه ليقدّمه هدية لزوجته مريم عزة، ومن هنا جاءت تسميته «قصر مريم عزة»، وقد كانت تستقبل فيه ضيوفها المهمّين من ذوي السطوة والنفوذ.

أما عن تسميته «قصر بن قانة»، فتؤكد الروايات نفسها، أنّها أُطلقت على القصر بعد أن آلت ملكيته إلى شخص يُدعى «بن قانة»، وهو أحد أثرياء ولاية بسكرة، ويُعدُّ المالك الثاني للقصر، بعد أن اشتراه بمبلغ ٢٠ مليون فرنك فرنسي في ذلك الوقت، واتّخذه مكانًا للراحة والاستجمام لعائلته وأصدقائه.

وفي سنة ١٩٨١، أقدمت السلطات الجزائرية على تصنيف القصر ضمن المعالم التاريخية المحفوظة، ورصدت له ميزانية كبيرة للقيام بعمليات الترميم التي استمرّت دون انقطاع حتى سنة ٢٠١٥.

المصدر: العمانية